

في البيئة المنزلية تنهض اللغة العربية

من بحث بقلم

حضرة صاحب النزة محمد احمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف
والاستاذ محمد عبد الرؤوف بهنى المدرس بمدرسة عابدين للمعلمين

المنزل هو المدرسة الأولى التي تغرس في نفس الطفل من العادات
والخلال ما يبقى أثره مدى الحياة.

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وأثر الأم أبلغ وأعمق : فالطفل في بدء تأتاته يحاول محاكاة والده
ووالدته ، وهنا يلقي على عاتق الوالدين واجب خطير ، ويعهد إليهما بمهم
يتطلب مجهوداً جديداً كبيراً ؛ إذ يتحتم ألا يلفظا أمام طفلهما بكلمة ، أو بلفظ
أجنبي ، متذرعين إلى ذلك باليقظة والحذر ، والنطق باللغة الصحيحة ،
حتى تختلط بلحمه وتمتزج بدمه ، وينشأ واللغة رضيعي لسان ثدى أم .
ويكثران من محاوراته باللغة الفصيحة ويلقيان عليه كثيراً من القصص
الصغيرة ويطلبان منه الفينة بعد الفينة أن يقصها عليهما ، ولا يدعوها
إعجابهما به إلى التجاوز له عن اللحن ، بل يرجعانه ، وإذا تعذر عليه
التصحيح يرشده . ولا ريب أن واجب بقية أعضاء الأسرة لا يقل عن
واحب الأبوين في إحاطة الطفل بسياج الفصيحة كي لا يتسرب إليه شيء
من العامية أو الرطانة الأعجمية ؛ ولهذا كان عرب الحواضر يرسلون
أطفالهم إلى البادية ، معتقدين أن ذلك أشد لأذهانهم ، وأقوم لألستهم
وأوضح لبيانهم .

وقد اقتضت حكمة الحكيم الخبير أن تجرى تلك السنة ، وتتبع هذه

العادة مع نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام : فعهد به إلى حليلة السعدية
فارتضع أفأويق البلاغة من بنى سعد ، ثم هو من قريش وشب فيها ،
ولغتها على ما نعلم من السعة والركة ، والجزالة وحسن اللهجة . وظهر أثر
ذلك كله في بلاغته صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم
كما قال القاضي عياض ، : « بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهل :
سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، وفصاحة لفظ وجزالة قول ،
وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ،
وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ،
ويباريها فى منزع بلاغتها .

ولقد أبدى سيدنا أبو بكر إعجابه ببلاغته إذ قال له كما رواه أهل
الأدب : « ما رأيت أفصح منك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضعت من بنى سعد » وكان يقول لأصحابه :
« أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت من بنى سعد » ثم جمّله الله فأحسن
تأديبه فكان أفصح اللسان وأوضحهم بيانا ؛ روى عن بشار بن برد
أنه قال : نشأت فى حجور ثمانين شيخاً من بنى عقيل ، وجلست إلى
نسائهم فنساؤهم أفصح منهم . وهذا أكبر مؤيد لما ذهبنا إليه من عظم
تأثير البيئة المنزلية فى تقويم اللسان ، وشحذ الالهام . فإذ ترعرع الطفل
فى بيئة سليمة التفكير ، حسنة التعبير ، كان أقوم قيلاً ، وأوضح فى البيان
سليلاً ، وإلا فاللكنة تعقد لسانه والعجمة تبهم بيانه .

هذا وأن القلب ليكاد ينفطر ، وماء الشئون لا يفتأ ينهمر حينما يذكر
المرء ما يعتمد إليه بعض أغنيائنا ، وينزع إليه الكثير من عظمائنا من إلقاء
اطفالهم بين يدي مرييات أجنبيات يرضعنهم مع اللبن الرطانة الأعجمية ،
ويعودنهم العادات الأجنبية التى تتنافر مع آدابنا القومية ، ولا تتلاءم

مع أخلاقنا الدينية فينشأ الناشء منسلخاً عن قومه ووطنه في عاداته وأخلاقه وشعوره وإحساسه ، لا يكاد يبين إذا حاول النطق بالعربية ، بل يتلثم لسانه ، وتختل عباراته ، وتدمى القلوب لهجته . ولقد سمعنا طفلاً يخاطب ظئره الأجنبية بالعربية ، ومع سماعها إياه وفهمها ما يرمى إليه لم تعره اهتماماً ولم تباله بل ازددرته وأعرضت عنه ، فاضطر المسكين أن يكلمها بلغتها ، مدعنا لاصرارها ، خاضعاً لإغاثتها واستكبارها فهشت له ولبت طلبه .

فهذه المربية وأمثالها ، وهن كثيرات في تلك البيئات ، يغرسن في نفس الطفل احتقار لغته وقوميته فيشب مزدرياً لها بل نائياً عنها .
وقل مثل هذا أو أشد عن يرمى به إلى المدارس الأجنبية ، فإن عاقبته لا تقل عن ذلك إن لم تكن أدهى وأمرّ . يعتمد هؤلاء العضاء إلى تربية ابنائهم على هذا النمط المعيب مغتبطين بذلك أيما اغتباط ، معتقدين أنهم ربوا أبناءهم تربية عالية ، وأعدوهم إعداداً حسناً ولا يدرون أنهم بعملهم هذا يصوبون سهاماً مسمومة إلى نحور لغتهم ووطنهم ودينهم فإن هؤلاء الأبناء . مع شديد الأسف هم رجال المستقبل ، وأولياء أمور البلاد غداً ، فهل يرجى منهم نفع لبلادهم ، وهم لا يشعرون بشعورها ولا يحترمونها عاداتها ، ولا يتخلقون بأخلاقها ، أو يتأدبون بآدابها ؟ وهل ينتظر منهم رفع شأن لغتهم — التي هي صلة الوطنية ، وترجمان الأمانى القومية ؟ هل ينتظر منهم هذا وهم يجهلون اللغة ولا تكاد تسلم لهم عبارة من لحن شائن ، أو عامية معيبة ، أو رطانة مزرية ؟ وأن في مصر لأسراً مصرية تحرم على نفسها ، وتأبى الإباء كله أن تتكلم في منزلها إلا باللغة الفرنسية ذهاباً إلى أن في ذلك الرقي العظيم ، واعداد نشئهم لهذا الرقي ؛ حتى أن الزائر لهذه الأسرة وأمثالها إن كان فرنسياً لا يشعر بأنه بعيد من مألوفه لغة وعادة .

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
 ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان
 فهل يتوقع أن يوجد عند هذه الأسر من الآمال والأمانى مثل ما عند
 بنى وطنهم؟ وهل يمكن أن يخدم أبنائها بلادهم وهم على هذه الحالة
 الشنيعة من الانسلاخ؟ كلا وألف مرة كلا!! هذا مبلغ تأثير التربية
 المنزلية فى اللغة التى هى عروة الدين ورابطة الوطنية، وعماد القومية.
 ومن ذلك ندرك خطر الواجب المقدس والمسئولية العظمى الملقاة على
 عاتق الوالدين، ونعلم علم اليقين أن تعليم الأم أمر لا مفر منه ولا يحصى
 عنه. لا جدال فى وجوبه، ولا نزاع فى أن حاجتنا إليه حاجة إلى الحياة.
 الحققة؛ فإن الأم الصالحة تعرف الواجب لصغيرها، وتسير فى تربيته.
 وإعداده لوطنه على بينة من أمرها فلا تخبط فى ذلك خبط عشواء، بل
 ترقى به على نور العلم إلى ذروة العلاء. ولقد صدق من قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الاعراق
 غير أن ما يمزق الذؤاد كدأ، ويلهب نار الأسف بين حنايا الضلوع
 — أننا لا نسلك فى تعليم المرأة السبيل التى تنتهى إلى الغاية المنشودة —
 من أعداد امرأة صالحة للاضطلاع بمهم تدبير المنزل وسياسته، وحسن
 القيام بواجب تربية الطفل تربية تهيئه للنفع العام. بل نسلك فى تعليمها
 سبيلا شائكة معوجة تنتهى إلى هوة عميقة، وطامة خلقية كبرى.

وإلا فقل لى بربك: لماذا يكون تعليم البنات والبنين على وتيرة واحدة.
 نظاما ونهجاً واختباراً؟ أتوقع وقتاً وحالا تستحيل النساء فيه رجالا،
 ونكون حينئذ قد أعددنا العدة وأخذنا الأهبة لقيامها بعملها الجديد؟ أم
 نبغى، لقلة عدد المتعلمين، أن نعد الموظفين والمدرهات والطائرات
 والقاضيات والمستشارات والوزيرات؟ مع أن عندنا مع ارتفاع نسبة

الأمية ارتفاعاً هائلاً ، عشرات الآلاف من البُهْل المتعلمين الذين يتسكعون في الطرقات وتغص بهم المقاهي ؟

يا قوم ؛ ليست هذه سبيل تعليم المرأة تعليماً صالحاً ، فإن كنتم تريدون أما لها من قوة تعليمها وصلاحيته ما يمكنها من القيام بواجب تربية أبنائها ، وحسن إدارة منزلها وتديره ، فبادروا إلى فصل منهاج تعليم البنات عن منهاج تعليم البنين ، فإن لكل وجهة هو موليها ، وقد أعد الله المرأة لعمل غير عمل الرجل ، وكونها تكونياً يجعلها أقدر على أداء مهمتها منه ، وفضلتها عليه في القيام بهذا المهم ، كما كون الرجل تكونياً يؤهله لأداء واجبه الخاص به في الحياة ، وفضله على المرأة في ذلك . روى أن أم سلمة رضى الله عنها إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم : رأت الرجال قادمين من الجهاد في سبيل الله فتمنت أن لو كانت رجلاً جاهدت ونالت أجر المجاهدين ، وذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها بأنوثتها حُرِّمت ذلك الأجر ، كما حرمت نصف الميراث ، فنزل قوله تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلو الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً »

فبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن لكل من الرجل والمرأة سبيلاً في الحياة لا يسلكه سواه ، وعملاً لا يقوم به غيره ، وأنه لا يجوز لأحدهما أن يتطلع إلى ما خص به الآخر . فهذه هي الشرعة الواضحة ، وذلك هو المنهاج القويم فيجب ألا يتجاوز منهاج تعليم المرأة الغاية من إعدادها لما خلقت له بأن تعلم ما يأتي : —

(١) لغة البلاد : تجيدها قراءة وكتابة ومحادثة .

- (٢) دينها : تتفقه فيه تفقها يجعلها على بينة من ربها ، وعلى بصيرة من محاسن الخلال ومكارم الأخلاق .
- (٣) شؤون المنزل : تتعلم كيف تديره إدارة حكيمة وتديره تدبيراً رشيداً ويدرس لها من العلوم ما يؤهلها لذلك . كالحساب مثلاً .
- (٤) تربية الأولاد : تعلم كيف تعنى بشأن أولادها ، وتحسن القيام على تقويمهم وتحافظ على صحتهم .
- (٥) تربية قوة الحكم والاستنباط والعاطفة الوطنية : تعلم من التاريخ والجغرافيا والأشياء والتربية الوطنية ما يربي عندها ملكة الحكم الصحيح والاستنباط الحق والعاطفة الوطنية .
- هذا بمجمل ما ينصح للبنات أن تتعلم ، وما يلزمها في القيام بواجبها في الحياة على أتم وجه وأكمل صورة